أبواب كيان

يقين بناني

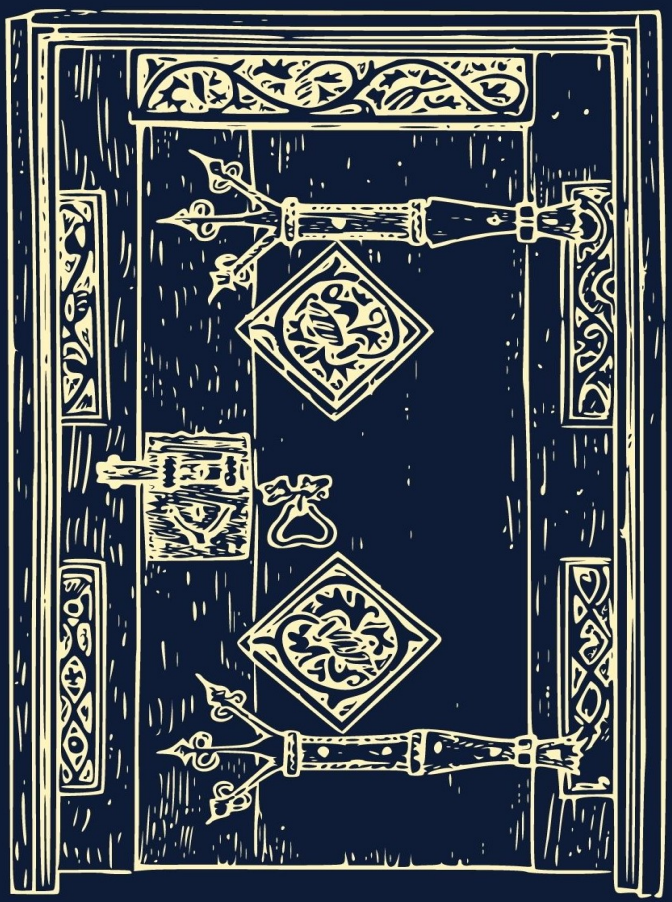

أبواب كيان

يقين بناني

المقدمة

أين تكمن حدود أفكارنا ؟ متى نعجز عن التخيل ؟ و هل لمخيلتنا حدود حقا ؟

لن نبلغ الحدود الحقيقية و لن ندرك قدراتنا على الخلق والإبداع حتى نمحوَ حدودا وهمية نضعها كلما رَفَضْنَا الاطلاع على أفكار الغير من حولنا و تَقَوْقَعْنا على ذواتنا متشبثين بمعتقداتنا نأبى البحث عن إجابات لأسئلة مثل كيف يرى غيري هذا ؟... و الأصل أن نلقي نظرة داخل عوالم أخرى أن نفتح أبوابا مختلفة، نتخير مكونات متنوعة، نقدمها لمخيلتنا ونفتح لها المجال لتدمج هذه العناصر فتبدع أفكارا وتخيلات جديدة...

و تزداد الحدود و الحواجز و تتضاعف كلما ازداد خوفنا من التغيير، من هدم فكرة لازمتنا سنين... و إننا كلما تمسكنا بما

نحن عليه وضعنا حدا آخر يفصلنا عن ملامسة قدراتنا الحقيقية على الخيال و التفكير بحرية...

وجب أن نتهيأ للتغيير، لهدم كل ما بُني داخل عقولنا والبدء من جديد. فالحصول على قدرة التخلي عن أفكارنا هي المفتاح للتخلص من كل الحدود ، هي الطريق لفتح المجال أمام التخيل... فهي القدرة على تقبل من يقول لك: "لست كما تظن نفسك" و على إدراك أنك يمكن أن تُخدع من قبل عقلك و يمكن لأفكارك التي لطالما آمنت بها أن تكون خاطئة...

هكذا تُهدم كلمات و تُبنى في الصفحات التالية، تُسلب منها معانيها و يُنتظَر منك أن لا تتردد وأن تمنحها معاني جديدة، أن تمنحها لونك و جزءا من روحك...

مددت يدي داخل ذلك البياض عل بعضا منه يتدفق داخلي، فإذا بشتات روحي تنعكس عليه و يتلوّن الفضاء من حولي... جلست يجول بصري في الأرجاء، يبدو لي أني زرت هذا المكان من قبل أم هو يشبهه؟...

وجدتني أركض في ذلك الشارع المكتظ لا أعي وجهتي
و لا غايتي أصطدم ببعض المارة فيصرخون في وجهي.
ابتلت ثيابي بسبب المطر لكني لم أكترث لحالي و واصلت الركض حتى وصلت المنزل،فتحت الباب وتوجهت لغرفتي مباشرة لأرمي بنفسي على الأرض.
تنهمر دموعي و أنفجر ضاحكة، تمد يدها نحوي قائلة:
"أرى الحزن فيك"
أبتسم هامسة:" أيضحك من زاره الحزن ؟"
و إذا بهـــا تحتضـــنني، تتلاعـــب بخصـــلات شـــعري مرددة:"سنسافر إليك، سنجدك و نعيدك إلينا"
و إذا بتلك الكلمات آخر ما أسمع و إذا بي وحدي في فراغ أبيض يخيل لي أني وسط نور ساطع لست أعرف أين ينتهي و لا من أين يبدأ... و إذا بمنازل قديمة تظهر متفرقة في الأرجاء، و إني أرى أبوابا أخرى لا ترتبط ببيوت من حولي... أغرب به من منظر تشهده عيناي و تستغربه لكن

عقلي يأنس له و يوحى إلي أنه يعرفه... ثم و فجأة تختفي الأبواب و المنازل و يتحول الأبيض ألوانا متداخلة. أجدني أقف في دائرة صغيرة لا تكاد تسع قدماي و من حولي أشياء متعددة... ألعاب و كتب و قوارير و ملابس... إنها فوضى عارمة من حولي و أكاد أختنق... أجول ببصري في المكان لكن لا شيء غير هذه القمامة... حبل يتدلى من السقف بغتة فأمسكه و إذا بي أصعد تاركة ذاك المكان تحتي...

لكن إلى أين هذا الحبل يحملني ؟

أقف في مكان واسع، يبدو لي أنه مستودع كبير... كيف وصلته و كيف أغادره؟ هناك عدة رفوف مليئة بالوثائق من حولي. هذا المكان أشبه بمكتبة ضخمة، مكتبة قديمة ملأها الغبار فأطبق عليها اللون الرمادي سيطرته و أفقدها حسنها. إنها تقترب مني رويدا، ذات الفتاة التي لا أستطيع تمييز ملامحها... أحس جسمها يهوي علي إنها تحتضنني، أمسكت يدي و انبرت تقول:" سآخذك إليك... من هنا، أرجو أن تتبعي خطاي"

أعالمة هي بغايتي و أنا لا أعلمها؟ هل ستخبرني سبب هذه الألفة التي أحسها كأني زرت هذا المكان قبلا؟

سرت وراءها و إذا بها تعيدني لذلك الأبيض الناصع و تلك الأبواب المقلوبة... تتزايد دقات قلبي و أحس اضطرابا و توترا... هل سأعود إلى تلك الغرفة الضيقة و أدفن تحت الألعاب و الكتب؟

ثم أقابلني طفلة بل رضيعة لم تنطق بعد لكنها تركض

و تدخل الأبواب و المنازل ثم تختفي تاركة وراءها صدى ضحكاتها في أذني. آثار أقدامها التي تكاد لا ترى بسبب صغر حجمها تظهر حمراء جلية للعين... تتوالى علي تساؤلات عديدة مبهمة... ماذا رأت الرضيعة و ما الذي تخفيه الأبواب؟ أتلونت الآثار بالأحمر لإرشادي للطريق أم لتضليلي؟

تملكني فضول و رغبة في الاطلاع و هي صفات لم أعهدها من قبل فقد جبلت على الحذر و التحفظ... لكن ماذا ضر لو تجاهلت فطرة التكوين مرة و استسلمت لهذه المشاعر؟

تقدمت بخطوات بطيئة و إذا بي أقف أمام إحدى الأبواب و أهم بالدخول لأكتشف ما خلف كل باب...

الباب الأول

في وسط أزرق جميل جلست و قد انعكست صورتي أمامي تخاطبني، تسألني:"من أنت؟و ما هي وجهتك؟" وجدتُني أهمّ بالحديث و لا أقدر... تستحيل كلماتي ابتسامات خفيفة و دموع حارقة تستجيب لها بالمثل... تقترب مني،تهمس في أذني ثم تبتعد قائلة:"هذه الحقيقة عزمت كشفها لك.." فإذا بي أعود طافية على سطح بحر من الألوان الممتزجة... و يلوح لي ذلك الأبيض في الأفق مجددا... فأسبح نحوه و أختار الباب التالي...

الباب الثاني

فتحت الباب بتأن و ولجت قاعة ألفيتها مكتظة، انتشر الناس في أرجائها البعض جالس و الآخر واقف... هممت بالعودة لكنها منعتني... تجلت على وجهها ملامح مبهمة... دفعتني مشيرة بإصبعها إلى كرسي أظنها أرادت مني اتخاذه مقعدا ثم اختفت... و إذا بي ماضية نحوه أتخطى الجموع... وجدت القلق يزداد بي كلما تقدمت لكني أحسست دافعا يحدوني فشققت الزحام حتى وصلت
و جلست... عندها رأيتها مجددا و هاهي هذه المرة تقدم لي بالونا جذبني لونه فأخذته... لوّحت لي بيديها و توارت عن نظري كعادتها...

عدت أجول ببصري في الغرفة فوجدتها انقلبت سماء زرقاء ساحرة... أخذ الكرسي يرتفع و يقترب من الغيوم أكثر.. حينها فقط وجدت في قلبي طمأنينة لم أعهدها من قبل...

يواصل الكرسي في الارتفاع و ها أنا ابتعد أكثر... تتحول الطمأنينة رهبة، ينفقع البالون و أسقط...

أفتح عيني ببطء، أنا أقف في مكان واسع، كل ما حولي رمادي هادئ... إن المكان يصغر شيئا فشيئا و الرمادي يتحول أحمر... كأن هذا اللون الهادئ يعبر إلى داخلي و يملؤني... أين أنا ؟ يبدو لي أني وسط دمائي... أحس بالبرد و الخمول كما لو أني فقدت دمي فإذا به يملأ المكان حولي مقابل دخول الرمادي جوفي... ثم إن شيئا ما يقترب... ظل طويل يتقدم نحوي... إنه قطّ كبير يقف على قدميه الخلفيين، يربت على رأسي و يموء... يتقدمني بخطوات كأنه يدعوني لأتبعه... ها هو يركب قاربا خشبيا لم ألحظه من قبل، إنه ينتظرني، أهم بالركوب فيبتسم و يغادر تاركا إياي وراءه أغرق في دمائي و يغرق الرمادي في... أوشك على الاستسلام و أقرر الخنوع...

لكن ماذا لو أنّ المكان مليء بقوارب أخرى لم ألحظها؟
هل تراني ألاحظها هذه المرة لو حاولت النظر مجددا؟
أم أني سأواصل الغرق و لن يتغير المشهد؟

الباب الثالث

المكان ضيق و لم أستطع الحراك...

نظرت من حولي، يُخيل لي أني في الفضاء و المكان فسيح... أعتقد أن جدارا من الزجاج يحيط بي أم لعل صورة الفضاء قد رُسمت عليه... مجموعة من الناس كانت تسبح بالخارج غير أنها لا تجيد السباحة... أغمضت عيني برهة ثم فتحتها لأجد المنظر قد تغير...

أنا في حقل أزرق واسع فيه بعض الغيوم، نظرت لأعلى فإذا السماء خضراء تزينها الورود... ثم أنا أركض و المكان بلا حدود..

أي المنظرين هو الحقيقي أم أنّ كلاهما مزيفان... ماذا لو أغمضت عيني مجددا و فتحتهما؟ هل سيتغير المكان؟...

الباب الرابع

فجأة وجدتني أحاول أن أجد لذلك الجدار أثرا، أرمي ببصري و يدي في كل مكان عليّ أتبيّنه وسط هذا البياض... أتراه غير مكانه؟ لكن كيف له أن يتحرك دون أن أتفطن له؟ لعليّ أنا من تهت... هناك بقعة بنية بل ربما هي سوداء أو بيضاء تقترب مني... إنه رجل طاعن في السن...

الإحساس الغريب ينتابني مجددا، إحساس ينتابني كلما تظهر ذات الفتاة. هاهي تسألني :

-أهذا ما ترينه حقا؟

-أجل لا شيء غيره

أمسكت بيدي و قفزنا معا... أشعر أنّي أسقط من مكان مرتفع و سأرتطم بالأرض قريبا... فتحت عيني لأرى من حولي، إني حقا أسقط... كأني وسط بحر ملون امتلأ بالنجوم... أرى طيفه، إنه الجدار... أحاول أن أصله، أمد يدي نحوه فيُخيّل إليّ أنّي ألمسه، لكنّه يختفي ليظهر من جديد في نقطة أبعد... أيبتعد عني أم أنا من يفعل؟ لكن هل لمسته من قبل؟ هل استشعرت وجوده؟...

لا لم أفعل.. لعله إذن طيف يلهو معي...

-فلتأخذي ذلك الذيل ولنسافر إلى الزرقة...

الباب الخامس

أمسكت بيدها الناعمة و سرنا معا... وسط نفق طويل يتوسع ثم يضيق مُخفيا نهايته... خلف هذه الجدان الزجاجية لون أزرق تزين بأسماك ملونة...

-لماذا هذا الأزرق؟ سألتها

-السقف و كذلك الجدران مرسوم عليها...

-هي مجرد رسمة؟

-أجل

و كعادتها، إجابات باردة مختصرة،ماذا عساي أفعل حتى تهتم بهذا الجمال من حولها؟ عضضت لساني و قطبت جبيني منزعجة، ضغطت على يدها و بادلتها النظرات ثم

أفلتها.. أسرعت نحو ذلك الزجاج ألمسه قائلة:" محال أن هذه لوحة..."

لبثت أراقب إحدى الأسماك، ما أجملها من كائن لطيف جذابة ألوانه... أما هي فلم تتحرك و ظلت تراقبني من بعيد...

لأصرخ فجأة:" تحركت... إنها تتحرك..."
أظنني نجحت في جذب انتباهها أخيرا، إنها تركض نحوي... بل نحو السمكة... إنها تخترق الزجاج و تدخل ذلك البحر... ضحكت قائلة:"أرأيت ليست لوحة!! لم أكن ألقي الكلام جزافا"
ثم لحقت بها لنصبح جزءا من الصورة...

ثم تغيرت اللوحة...

في مزيج من الخضرة و الزرقة و تحت سماء بيضاء، اجتمعت مجموعة من الرجال و النساء يلعبون...

هذه تجعل من شعر صديقتها ضفائر و تلك تشرب الشاي مع دميتها...

بعض الكهول يلعبون "الغميضة" و الآخرون منشغلون في اللعب بالحبل. أما في صندوق الرمل الذي لا يسعهم،جلست مجموعة من خمس رجال يصنعون قصرا بيد أنهم لم ينجحوا فبدأ بعضهم بالبكاء... لكني لم أكن أسمع أصواتهم كل ما استطعت فعله هو مراقبتهم. هل المشكلة فيّ أم أنهم لم يتكلموا ؟... لبثت أتصفح وجوههم،شوارب غزيرة و عيون ذابلة...

قلبت بصري هناك، بعيدا حيث لا شيء سوى طاولة وكراسي، ثلة من الأطفال كانوا قد تحلقوا حول تلك

الطاولة... ربما لا يتجاوز عمر أكبرهم السادسة. لكن يخيل لي أنهم يعقدون اجتماعا هاما...

حاولت التمعن في ملامحهم، إنها لا تختلف عن تفاصيل الأطفال العاديين... ابتسامة لطيفة، بشرة صافية و عيون براقة...

فجأة، توقف الجميع و التفتوا نحوي مشيرين بأصابعهم كما لو أنهم يدعونني للانضمام إليهم. لأجد نفسي- أتراوح بين مجموعتين و علي اختيار أحدهما...

أغمض عيني و آخذ نفسا عميقا ثم أواصل طريقي كأني لم ألحظ دعوتهم...

الباب السادس

في مكان مهجور، بين الحطام، تجمعت ثلة أخرى من الأطفال... إنهم يتعاونون على حمل بعض الأخشاب... يجمعون علبا و حجارة و قطع قماش... يرتبون ما يجمعونه و يُقسّمون المكان... أعتقد أنهم قد بنوا عالمهم الخاص هناك، بين ذاك الحطام... قد لا نرى المكان سوى بقايا جدران لكن بالنسبة لهم ما إن تخطو نحو تلك البقعة حتى ترتدي أفضل اللباس و تمتلك أقوى القدرات الخارقة فتغدو بطلا من الأبطال... إنهم يركضون و يصرخون أعتقد أنهم في مهمة ما... ثم إنهم في إحدى المدارس يتابعون الدرس... يكفيهم ذلك المكان، ذلك الخراب و لا حاجة لهم بأكثر من

ثلاث أصدقاء حتى يُبعثوا لذلك العالم الساحر و يسافروا لأي مكان و يقابلوا من شاؤوا من الناس...

-أهكذا المكان في عينيك؟

-بل أجمل و لكن الحروف لا تشكل كلمات قد تصف ما أراه...

-إنك لتهذين، فهلم بنا نغادر فما هذه الأرض إلا جرداء كأننا في الحجاز. ..

-ولكنها جزء مني لست اتركه...

حينها رُمقت بنظرات حانقة و إذا بها تغادرني... أستطيع سماع وقع أقدامها... يرتفع الصوت كلما ابتعدت... لم أعد أرى سوى خيالها بعيدا و لكن الصوت لا ينفك يجول داخل رأسي يزعجني... أتراه يختفي إذا ما لحقت بها؟ إنها دائما ما تختفي فجأة لكني لا اعتقدها تعود هذه المرة لقد انزعجت...

أوشحت بنظري عنها، ودعت الأطفال و سلكت طريقا آخر فإلى أين يوصلني؟

الباب السابع

أنا في ساحة فسيحة، في إحدى الأحياء الشعبية، تمثال لفتى واقف في منتصف المكان... تمثال يرتدي أجمل الثياب يبتسم ابتسامة عريضة، و يمسك بيده كتابا بدا لي ثقيلا... مجموعة من الشبان تقترب نحوه... تضربه و تحاول تحطيمه... يأخذون السترة و الحذاء و يلطخون وجهه بالتراب... يرتدي أحدهم و أخاله قائدهم تلك الثياب و يركض الجموع حوله ملتقطين الصور مادحين القماش...

ثم تتعالى الضحكات... إنهم يسخرون من التمثال، يضربونه مجددا ثم يغادرون المكان... أتقدم تجاه الفتى... أصرخ:"لكنها ثيابه..!!" تُتجاهل كلماتي... أتأمل التمثال... إنه يضحك... أكانت ضحكاته التي تعالت في الأجواء أم ضحكاتهم؟... الخدوش تملأ معدنه، تغير لونه، يبدو عليه القدم...

أهم بالمغادرة فألاحظ أنهم لم يأخذوا الكتاب... لقد تغير عنوانه... ألقي نظرة أخيرة و أغادر المكان...

الباب الثامن

أواصل طريقي مرهقة... لأرى صندوقا كبيرا و أدخله... ها أنا واقفة في منتصف مصعد، تنعكس صورتي على الجدران الرمادية اللامعة، و المكان يدور بسرعة... إنه يسقط... ثم يتوقف و يفتح الباب... مجموعة من الناس تدخل فجأة، حاولت المرور عبرهم لأخرج... وإذا بي أحشر وسطهم... و يسقط المصعد مجددا لكن لا أحد منهم يصرخ... لا توحي تعابيرهم إلا بالطمأنينة و الاسترخاء... و كأنني الوحيدة التي تدرك أننا نسقط... سألت أحدهم:"ألست خائفا؟أسنرتطم بالأرض؟"

"-ربما.. لكنك ستصلين لمكان ما لمحالة"..

ثم فتح الباب مجددا، و خرج الجميع... التفت ذلك الرجل نحوي و قال:" ألست مغادرةً؟"

حركت رأسي و أُغلق الباب.. أغادرت المصعد أم بقيت هناك؟ و إلى أين أذهب ؟

يتوقف المصعد و يُفتح الباب...

أمشى في طريق واسع وحدي...

هدوء الليل وجمال المدينة متى غادرها الناس من حولي.

أواصل المشي- تحت ضوء القمر أرى ظلي و أحاول وصوله. يتغير حجمه ومكانه كلما تغيرت الإضاءة. أسرع الخطى وأبطئها فيفعل لكن لا قدرة لي على بلوغه. تتغير المناظر على جانبي الطريق لكن الممرّ نفسه و لازلت أطارد ظلي. تتوالى الألوان على جانبي لكن الممشى مافتئ رماديا .

ترى أين هي نهايته ؟ وما لونها ؟

الباب التاسع

أعـود لذاك الأبـيض، أتجـول بـين الأبـواب أتخـير أيهـا سأعبر... اتخذت القرار، الباب الأخضر...

في مكان ما أجهله، بين تفاصيل لي عهد بها لست أعلم أين التقطتها عيني فحفظتها... جلست امرأة ما على جذع شجرة... رحت أتجول في المكان أستكشفه، أنا على أرض منبسطة واسعة خلت من كل مظاهر الحياة، فهي لأشبه بصحراء قاحلة يتوسطها جذع شجرة ضخم ملقى هو الذي اتخَذته مقعدا... إنها امرأة في الأربعين جذبني قصر قامتها، إنها تؤرجح قدميها تلعب و تنحي إلى الأمام لا تكاد ترفع رأسها... اقتربت أحاول تمييز ملامحها، وجه عابس و عيون ذابلة لا تخلو من جمال... لكني أسمع ضحكاتها بينما تعابيرها

تترجم قلقا و ترددا... فمن التي تضحك؟ و لا تزال على حالها لا تحرك سوى قدميها و تزيد سرعة أرجحتها كل مرة... أزحت بصري عنها و وجهته إلى الأعلى و إذا بعالم أخضر فوقنا... أشجار مثمرة و ورود مزهرة، تتداخل ألوان جميلة في هدوئها و تحوم بينها طيور صغيرة... لمحت سلما أخاله يوصل إلى ذلك الجانب الآخر... أتراها لم تلمحه؟ ألن ترفع رأسها لحظة فتكتشفه؟...

ألقيت نظرة أخيرة على المكان و غادرته... و لست أظن المرأة لاحظت وجودي حتى...

الباب العاشر

إنها تتبعني تلك العجوز ثم تستوقفني...

-إنها أحبتكِ... أحبتك كونها رأت جزءا منها فيك،جزءا من جدة عجوز و أم رؤوم...

-إن للأجداد مكانة دافئة في قلبها... لقد اشتقت لها...

-لقد انتظرتُك طويلا... اتبعي ذاك الطريق واختاري الباب البني... ستجدينها...

ثم غادرت متوجهة نحو السلم...

لقد وصلت، لقد وجدتها، أراها تسبح في عالم بني ساحر و قد غمرها ذاك اللون فتلونت به... تقترب منها بعض النسوة، يربتن على كتفها و يداعبن شعرها وهن يدعون الله أن يسعدها و يوفقها... لم أكن أريد أن أظل واقفة أشاهد

من بعيد... اقتربت لآخذ محل الجدة تلوى الأخرى... الأولى أراها تجلس سائلة طفلة صغيرة أحسبها حفيدتها أن تقرأ لها اسم المتصل فهي أمية... لأجد نفسي أحس بإحساسها و أفهم شعورها و ما أغربه من شعور... مزيج من الحسرة و الفخر، سعادة و نجاح تراهما في أبنائها و أحفادها...

الأخرى أخذتني أفكارها إليها، إلى امرأة لم تمنعها عدد الشموع في كعكتها من الاستمتاع بحياتها، امرأة لم تيأس من تجاعيد وجهها و ظلت مبتسمة، إنها تقرأ إحدى الكتب، تقوم بحياكة قميص لحفيدتها التي أراها قادمة تركض نحوي لتجلس قرب جدتها فتساعدها على دراستها... امرأة تأخذ حقيبتها و تسافر إلى بلد تمنت زيارته قبلا...

ثم أسافر مع الأخيرة إلى منزل بسيط، إنها ترتل آيات من القرآن و قد أوشكت على حفظه كاملا، قضيت معها ليلة فإذا بها لم تنم إلا سويعات، إني أتذكر ذكرياتها في الكعبة تتعبد فتنهمر دموعي...

لئن اختلفن فإني اجتمعت بينهن في جو لطيف... بين أحضان جدة عطوف تقترب من حفيدتها مبتسمة... و في أعماق شعور مبهم... إحساس أن ترى أبناءك يكبرون أمامك بل و أبناءهم، ترى نفسك تكبر و العالم يتغير...

ليتحول كل ذلك البني فجأة إلى أثاث بيت عتيق، و أجد نفسي أمام بابه أهم بالدخول...

فأغلق الباب و أغادر...

الباب الحادي عشر

عندما غادرتني ظنتها منزعجة، لكنها بدت لي سعيدة هناك، خلف الباب البني... سأواصل طريقي و أنتظرها كي تزورني مجددا.. .

فتحت عيني ببطء،الأبيض يملأ جلّ المكان من حولي... بجانبي حقيبة قديمة لكنها جميلة قد تسربلت بلونها البني و زخرفتها المميزة، فتحتها،وجدت عدة ألوان و فرشاة... رغبة في الرسم قد تملكتني رغم أني لم أجرب الرسم يوما... قررت اعتبار المكان لوحة بيضاء أزينها... أتخير الألوان و أدمجها و أبدأ في تلوين ما حولي... توقفت لتأمل الرسمة. لم تعجبني. رميت بكل ما بيدي حانقة،أغمضت عيني

و فتحتها مجددا علّ المكان يتغير فقد نجح هذا معي قبلا ... لكنّ شيئا لم يحدث، أخذت دلوا من المياه لست أدري أين وجدته ثم سكبته على اللوحة...

"أزدت الأمر سوءا؟" كنت أفكر...

أجبرت نفسي- على الابتسام رافضة أن تجمح بي هذه الأفكار بعيدا عني،أخذت قلما آخر و قررت تزيين اللوحة مجددا...

أنا أقف وسط أسود حالك أتأمل سماء تزينت بالنجوم فوقي، تمتنع عيني عن الابتعاد عن ذلك المشهد الحسن... اختفت الأقلام و كذلك الرغبة في الرسم... أحس يدا دافئة تمسكني و لا أراها، و يتدفق ذلك الإحساس في فيخيل لي أن شبحا يحتضنني... أحس السماء أقرب إلي فأتحمس... هل هي تسقط أم أنا من يرتفع؟ ثم يتغير اللون و إذا بي في أعماق البحار أسبح... الأزرق من حولي يمتد في و امتد فيه...لئن تغير المكان فالإحساس نفسه و لازلت بين أحضان ذلك الشبح أختبئ...

ثم هاهو ذلك القط يسبح معي و يبتسم، أواصل الغوص معه إلى ما هو ابعد و أعمق حتى أصل أرضا غريبة... مباني مهجورة بنيت من الحجر القديم كأنها آثار رومانية غارقة... أتقدم نحو إحداها و قد اعتقدت أنها كانت في القديم منزلا... و ما إن هممت بالدخول حتى امتلأ

المكان حوريات بحر تلونت بالأسود... حينها هرعت أختبئ في ذلك المبنى...

لكن إلى متى سأظل هناك؟ و لما أهرب ألا يمكن أن تكون الحوريات لطيفات؟ و ماذا لو غادرت المبنى أيتغير اللّون مجددا؟

إحدى الحوريات تتقدم نحوي... تهديني رأس إنسان و تقول:

-في منتصف طيات هذا العقل ، وسط متاهة لا تنتهي جدرانها الأفكار، تركتها واقفة تنظر إلى المسافة التي قطعتها... لقد توغلت في أبعاد هذه الذاكرة المظلمة و تعمقت في مرتفعات هذا العقل المتأمل لكن ذلك كلفها سنين.

-ربما لأنها لم تكن تعرف الطريق فتاهت واستغرقت في المشي أكثر مما ينبغي...

أخذت سكينا، أمسكت الرأس وقطعته عرضيا لنصفين. كلفني ذلك خسارة الكثير من الدماء. مسحت يدي وقد تلطخت بالأحمر ورحت أراقب تلك الفتاة . لأتفاجأ أنها توقفت في مكانها أتراها استسلمت؟

أمعنت النظر فإذا بها تتحرك خطوة بثبات ثم عدة خطوات. أتوصلت للطريق؟ هل وجدت ما يساعدها على

فهم مكامن هذه المتاهة المعقدة؟ لا شيء هناك قادر على مساعدتها .

صمت برهة ثم أدركت الأمر... أكانت على علم بالطريق من البداية؟ أكانت تتناساه عمدا؟ أيّ كائن قد يفعل هذا؟ من هذا الذي يرضى لنفسه الشقاء وهو يعرف الطريق؟

لا بدّ أن لها في نفسها غاية. لكن ما هي؟

وبسرعة وثبات شقت طريقها لتصل إلى نهاية المتاهة... أم تراها عادت إلى بدايتها؟...

الباب الثاني عشر

أهي نفس الفتاة؟ ألم تكن وسط البني؟ لماذا أجدها الآن داخل هذا العقل؟ أيّ الفتاتين هي الحقيقية؟ أم أنّ كلاهما طيفان؟

تختفي الحوريات و أركض نحو الأبيض مجددا... أبحث عن الباب البني لكني لا أجده لقد اختفى... كل الأبواب التي عبرتها لا أثر لها... أبواب و منازل جديدة قد ظهرت.

دخلت إحداها و وجدتني في منتصف فراغ كبير، غابة هجرتها الحيوانات و امتنعت عنها الخضرة بينما أحبها الضباب فسيطر عليها... وقفت لا تميز عيني ما تراه لكني أحس شيئا، إني على يقين أنها تحاصرني إني أحس بها... و يُخيل لي أن الضباب يتحرك و أني أدور و لكني في مكاني لم

أتحرك و تزداد السرعة حتى أسقط على الأرض... تنهمر الدموع و أصرخ و لا اسمع للصرخة صوتا.. أعيد الصراخ و شيئا لم يتغير... تغمرني لوعة الحزن و شعور البكاء بلا صوت... أبكي فأكثر البكاء و اصرخ فأكثر الصراخ و لا صوت يخرج مني... لكني لا أتوقف...إنها تحاصرني حقا... لست أراها لكني أحسها تقترب و تواصل التقدم نحوي... زيارتها هذه تختلف عن سابقاتها... الشعور أقوى و لست أستطيع التوقف عن الصراخ... ثم و فجأة أنا أسمع صوتي... أنا أبكي،اصرخ و أصدر صوتا... حينها ظهرت أمامي... علمت الآن لما اختلف الشعور و غدا أقوى... يوجد الآلاف منها... لم تزرني وحدها بل كل شبيهاتها... و إذا بهن يقفزن فوقي... و أحس إحداهن تدخل عبري... إني أذوب و أتلاشى و لا يمكنني التوقف عن البكاء... ألقيت نظرة أخيرة من حولي فإذا بي واقفة أراقبني وجلة... "هل ستتقدمين لإنقاذي؟ أم ستعيشين مكاني؟"

لم تتحـرك لكلـماتي لكـن دمعـة سـقطت عـلى وجنتيهـا فابتسمت لها و أغمضت عيني...

و من قال أن تلاشيّ أمر سيء؟ لعله في النهاية التضحية الأنسب... إني أثق بك..."

الباب الثالث عشر

- لم أكن أعلم أن لديك شبيهات...

- و ما الذي تعرفينه عني أو عن هذا المكان؟...

لتختفي مجددا..

ستعود هي أو إحدى شبيهاتها... بت متأكدة من ذلك...

كان المكان مزدحما يعج بالجالسين، جو خانق تستطيع أن تحس به... النوافذ مفتوحة لكنك لا تحس للهواء وجودا... الجميع يبتسم لكنك متأكد من أن التوتر قد خيم على المكان... إنه شيء لا قدرة للبشر أن يروه لكنهم أكثرنا قدرة على الشعور به... أستمع لكلماتها و أشيح بنظري عنها لألمح تلك الفتاة... كل الأنظار موجهة نحوها، شيئا ما مختلف حولها، إنها لا تنفك تحرك قدميها و تقضم أصابع

يدها اليمنى أما اليسرى فهي تضغط بها على فخضيها كأنها تريد ترك علامة على جسمها، علامة تراها مستقبلا فتتذكر إحساسها هذا و تتكفل عيناها بعرض مشهد مختلف لكن مشاعرها ستبقى نفسها لا تختلف... جميع من في القاعة يصبحون أطول منها فجأة و هي تنخفض و تحس فارق الطول بينها و بينهم و يعود لها ذلك الهاجس... يظهر مجددا بدمامته فترتعش و تسري في جسدها رجفة فإذا بها تمد يدها و تمسك إحدى الجالسين حذوها و تضغط و هو يصرخ من الألم لكنها لا تسمع تلك الصرخة و لا ترى من حولها يهيجون و يحاولون افتكاك ذلك الطفل من يديها لكنها تواصل الضغط و تحاول الصراخ... إنها تريد أن تهرب لكنها تريد أن تبقى و تخشى- إحساس الوحدة إنها تمقت ذلك فهو يذكرها بشعور آخر هو أقسى- ما تخشاه... هو شعور أن تواجه الموت، إحساس لن يعرفه إلا من جربه... إنها تتمنى أن يبقى الجميع حذوها و كأن ذلك سيبعد الموت

عنها... إن أكثر ما تخشاه لحظة تغمض فيها عيناها لتجد نفسها قد غادرت، لحظة تتراءى لها فيها أمام عينيها كل تلك الذكريات الجميلة، حينها فقط تدرك معاني كلمات مبهمة كالذكرى و الحلم و الغاية و المشاعر... حينها تفقد كل تلك الكلمات معانيها لكنها تدرك هذه المعاني قبل أن تغادر الحروف بثوان... فهل ألومها؟ هل أقول لها لا تتوتري؟ إنّ حقيقة أن تواجه تلك اللحظة للمرة الأولى لهو أمر نزجع له لكني على يقين أن الحياة بعد مواجهة الموت و النجاة لأكثر مشقة وإني أجزم أن لقاء تلك اللحظة للمرة الثانية لهو أقسى و أسوء... و فجأة إنها تنتبه لما حولها و تترك الصبي

و قد تركت علامة على جسده... حينها يمتلئ رأسها بآلاف الأصوات فجأة... الطفل يبكي و أمه كذلك... إنهم يحاولون افتكاك الفتى و إبعاد هذا الوحش كما انبروا يلقبونها... و إذا بدموع تنهمر على وجنتيها و ابتسامة عريضة ترسم على وجهها لتعتذر ثم تغادر...

الباب الرابع عشر

أركض نحوها و هي مغادرة لأسالها:

-من أنت ؟

-أنا إحدى شبيهاتها... لم أكن أعلم أنك عدت...

-لا أدري كيف.. لكن أتعرفينني ؟

تبتسم و قبل أن تختفي تهمس قائلة:

-أراك تدخلين الأبواب و المنازل و لا تهابينها... لكني لم أرك تقتربين من ذلك الباب أين تُوضع الصناديق... أتخشين ما فيها ؟...

يتردد صدى كلماتها داخلي فأتقدم نحوه... و لأول مرة في حياتي أقترب منه لهذا الحد... أمدّ يدي لآخذها... فقد طال بقاؤها داخل ذلك الصندوق... كنت دائما أتجاهلها منذ لمحتها

أوّل مرة و ها أنا اليوم أعطيها أكثر مما تستحق... أفكر فيها فأطيل التفكير و أنساها فأطيل النسيان... لتجلس أمامي، تلك الرضيعة التي تشبهني... ترمقني بنظرات تثير في إحساسا مبهما لم أعهده من قبل... و تظل كذلك لساعات حتى يُطرق الباب و ينادي الطارق أن أسمح له بالدخول فقد طال غيابه و لو حاولت التذكر لأدركت أني استدعيته من قبل... لكن ما بالي الآن أحاول منعه من الدخول... هل لما وجدت في الصندوق دور في هذا؟ أم لون الجدران هي السبب؟

تركتها جالسة في ذلك الركن و خرجت من الغرفة متوجهة لذلك المكان،متجاهلة ما في صندوق آخر...

الباب الخامس عشر

لست أعلم لما لم أدخل ذلك المكان أول مرة ألمحه فيها... ربما خشيت تلك القضبان... لكني أريد زيارته الآن...

وجدتني أتقدم بخطوات ثابتة لا ترى عيناي سوى وجهتي، ألتفت يمينا ثم يسارا فتنسدل عليهما غشاوة تحجب عني الطريق ، أعود للسير للأمام فتجلو الغشاوة... بضع خطوات تفصلني عن ضالتي، كدت أصل أستطيع الجزم بذلك... بمجرد ملاحظتي لتلك الفراشات الصفراء حولي،امتلأت السماء باليرقات لتضيء المكان... بدأت ألاحظ بعض التغيرات في، ابتسامتي صارت أرق و صوتي قد انخفض... هناك جناح أبيض قد ظهر أيضا، يبدو أني سأستغرق وقتا حتى أعتاد عليه...

في وسط كل ذلك الجمال اتخذت ركنا و جلست أراقب ما خلف القضبان باشمئزاز... يلوح لي أني سأمكث هنا طويلا قبل مواصلة المسير ،المكان أجمل مما ظننت..

و بعد ساعات قضيتها أرتاح خلف القضبان، ها أنا عائدة إلى ذلك المكان... يهزني الشوق و يشرق وجهي بتلك التخيلات... أخال نفسي- واقفة في تلك البقعة الأخاذة، حيث يمكنني إمضاء الوقت ألعب مع مختلف الحيوانات، و أهتم بالنباتات... أتخير ركنا و أجلس أقرأ كتبا بينما أشرب الشاي و تحوم حولي قطط تؤنسني...

تهت في الأحلام تفيض دموعي على وجهي، ها أنا أقترب و لست أرى لا السور العتيق و لا ما خلفه... انبسطت الحقول أمامي و لا أثر له...

تتملكني الحيرة و تجول في عقلي التساؤلات...

"أيكون لذلك المكان وجود في هذا العالم؟"

لم يعد ذلك المكان موجودا رغم أني أتذكره... كان المنزل العتيق هنا... ظللت أتأمل ما حولي، إني أقف في ذات المكان منذ ساعات... تتكرر عين المشاهد... سماء بلا غيوم، أشجار ضخمة و زرقة تغمرني حتى أخال نفسي- أغرق... و لا وجود لذلك المنزل...

لقد فقدت شيئا... جزء ما ينقصني... لكن ما هو؟ أجول ببصري من حولي... أنا بمفردي... أحتاج أن أجده، ذاك الذي ينقصني... لكني لا أتذكر... و أحتاج المساعدة لكن لا أحد حذوي... إلى أين ذهب الجميع؟ أذكر جيدا أن المكان كان ممتلئا بالناس، مجموعة من الفتيات كن هناك... أتذكرهن... كنت معهن أسألهن عن البيت العتيق أم أني كنت جالسة أراقبهن و في يدي شيء ما؟ شيء غال و علي استرجاعه... أم أني أتوهم ذلك؟ أتخيلت نفسي- معهم؟ أم تخيلت وجودهم؟ و هل فقدت ذلك الشيء؟ أم أني لم أملكه حتى؟ مهلا ألست أبحث عن المنزل؟...

الباب السادس عشر

ـــ ما أنت بفاعلة هنا؟ لقد سمحت لك بالقدوم لنجدك لا لتتعلقي بمنزل عتيق...

ـــ لكني لا أعي مغزى كلامك حتى...

ـــ من طلب منك إدراكه؟ فلتختاري الباب التالي!!

لقد عادت، تلك الفتاة و هاهي توبخني... أتقدم نحو باب رمادي و أعبره...

الساعة تشير للسادسة إلا عشر دقائق... الباب مفتوح كذلك كل النوافذ... هواء بارد يجول في هذه القاعة... أصوات التلاميذ عالية، كل يتحدث و المعلم يتجول بين الصفوف مبتسما... كنت جالسة في الصف الثاني أحاول إغلاق أذني لأن لا أسمع هذا الضجيج... قطة سوداء تقف أمام الباب لا تتحرك... ظللت أتأملها... إنها تبحث عن

أحد ما لتتوقف عيناها عليّ ثم تغادر ببطء... أتطلب مني إتباعها أم أنا أتوهم؟... وقفت بهدوء و اتبعت خطواتها... المكان مظلم و الرؤية صعبة... أين أنا و متى اختفت القطة؟... لأرى فجأة بحرا أسود يمتد أمامي... استلقيت على سطحه أنظر إلى السماء من فوقي... أجمل بها من سماء... ألوان متناسقة، شمس توشك على الاختفاء، كواكب ملوّنة، أشجار من الحلوى و غيوم وردية... تمنيت لو أني أصل تلك البقعة البعيدة... إنها تقترب... هل ارتفع سطح البحر أم إن السماء هي من نزلت؟... و ها أنا أجلس فوق تلك الكواكب المُزدانة... أتأمل ذلك البحر الأسود لأجده جذابا لا موحشا أو مخيفا... أنظر من حولي، بضع أطفال يقتربون مني... أمدّ يدي لأربّت على رأس أحدهم فإذا به يقطع يدي مبتسما... تتعالى الضحكات و تتناثر دمائي فتلعقها تلك القطة... أحاول الهرب فأركض بين تلك الأشجار... يلاحقني الأطفال...

و تبـدأ الحلـوى في الذوبان و الكواكب تـتلاشى... و أنا لا زلـت أصرخ أبحـث عـن منجى... دخلـت إحـدى الأبـواب راجية أن يتغير المكان...

الباب السابع عشر

أرض خضراء ممتدة و سماء زرقاء صافية... رجل يمشي- ببطء فوق تلك الأعشاب و آخر يطير بين السحاب... أما أنا فأخذت أمشي فوق الغيوم التي تتلون بلون دمائي كلما خطوت فوقها... يتبادل الرجلان ملامحهما و يواصل كل منهما طريقه ليختفيا عن نظري... و أصل أنا درجا تخاله لإحدى القصور القديمة... أنزل بتؤدة لأصل بحرا أزرق واسعا... تتغير الألوان و تتكرر المشاهد... أمشي فوق تلك المياه الباردة لأصل نهاية البحر... إنها بمثابة جرف كبير... أقف متأملة ذلك الفراغ... و إذا بالقطة تدفعني فأسقط...

و فجأة أجدني جالسة في تلك القاعة، ذات التلاميذ
و ذات المعلم... عادت يدي لطبيعتها فأغلق أذني مجددا...
تناديني نفس القطة... أقف بهدوء و أتقدم نحوها ثم أغلق الباب...

أعتقد أني سأنتظر رنين الجرس بعد عشر دقائق هذه المرة...

وجدتني أركض بسرعة... تتسارع دقات قلبي... لست أتذكر متى رن الجرس ومتى غادرت القاعة... الرؤية أمامي غير واضحة... سائل أزرق ينهار من عيني لكنه يؤلم... كنت مطاردَة... بين تلك المروج الخضراء الشاسعة، طفل صغير في الرابعة من عمره يطاردني و بيده عصا... إنه يضحك و يزيد في سرعته... بدأت أشعر بالإرهاق... من فوقي سماء وردية، قوس قزح وعدة أشكال ملونة... ثلة من المهرجين يراقبونني من بعيد... أواصل الركض... إنه يقترب، يكبر حجمه تدريجيا... بات يستطيع دهسي- تحت قدميه... شيء ما يقفز فوقي... و إذا بيدين تحيطان بعنقي... أحاول التقاط أنفاسي لكني أختنق... تبدأ الأشكال في السقوط كذلك قوس قزح... يهرع المهرجون نحوي... لكن الطفل يغادر بهدوء... شيء ما يخرج من فمي و يطير نحو ذلك الصبي... و فجأة تغدو الأرض كرمال متحركة و أنا أغرق... أغمضت

عيني، و تدريجيا أصبح جسدي بأكمله تحت الأرض...
ماذا لو فتحت عيني هذه المرة؟ أين سأكون؟

الباب الثامن عشر

إني في أعماق البحر، مجموعة من الأسماك تسبح هناك، بعيدا، فوقي... أنا واقفة وسط طريق طويل... تمر عبري السيارات كأني لا أُرى... إلى أين وجهتهم؟ و ما هي نهاية هذ الطريق؟ حاولت إيقاف إحدى السيارات لكن أحدا لم يكن يقودها... ذهبت أتفقد باقي السيارات... جميعها خالية و لا تتوقف... هل أتبع هذه المركبات؟

توقفت لحظة ثم قررت. فلأذهب في الاتجاه المعاكس و أرى بداية الطريق و من أين أتت هذه السيارات...

أواصل التقدم أبتغي العودة لبداية الطريق... أصل أَجَمَةً، مكان كثيف الأشجار، أرى بحيرة، أقترب منها و أمد يدي أداعب المياه... أتخير ركنا تحت شجرة و أجلس أراقب المكان... شيء غريب يحدث معي... تتسارع دقات قلبي... إن جسمي يتغير... تظهر التجاعيد في كل مكان... أحس بالتعب و بثقل جسدي... أرى انعكاس صورتي في الماء... إني عجوز قد تقدم بها العمر... تقترب امرأة لعلها في نفس عمري و تجلس بجانبي... إنها تتحدث لكني لا أصغي لكلماتها... أواصل التحديق في انعكاسي... أجد صعوبة في التنفس، إني خائفة و أكاد أختنق... لم تتوقف عن الكلام

و لو لبرهة، تطرقت لسمعي كلمات مثل الماضي و الأحلام

و المحاولة لكني لم أفهم ما تقوله و لم أعره اهتماما... ثم و فجأة تختفي صورتي و لست أرى انعكاسي... تهدأ دقات قلبي وتختفي التجاعيد... تصمت العجوز بجانبي، تقف

و تضع ورقة في يدي، تعانقني تبتسم و تغادر... أحس فجأة أن لكلامها معنى ووقع في نفسي... أفتح الورقة أقرأ ما فيها و أغادر... لن أبحث عن بداية الطريق و لن أتبع العجوز سأعود للأبيض...

الباب التاسع عشر

كيف وصلت إلى هنا؟ كنت أبحث عن الطريق إلى الأبيض و الآن أين أنا؟ لست أسمع و لا أُبصر شيئا... لقد فقدت جميع حواسي... أحس بالفراغ، إني أرتجف... لست أدري ما حولي و لا أستطيع تحسسه... هل أنا بمفردي أم هناك من معي؟ إني أعجز عن القيام بشيء... إنه إحساس ما كُتب في تلك الورقة، إنه الندم...

تبدأ الغشاوة على عيني في الانزياح تدريجيا... إستعدت جزءا من حواسي.. إني في الأبيض لكنه مختلف... إني أقف أمام مجموعة من الجثث أميز بعضا من أصحابها... ما الذي حدث هنا؟ أميز تلك العجوز صاحبة الورقة و شبيهات تلك الفتاة... إنه الرجل المسن و أولئك الأطفال... هل

قُتلوا؟ و من قاتلهم؟ و أين هي تلك الفتاة؟ لست أرى جثتها... لكني أسمع صوتها... إنها تحدثني من بعيد... تريد مني الإصغاء لها... لكني لا أراها... إنها تطلب مني المغادرة. تردد:"هذه نهاية زيارتك... هذا جزء يكفيك. "..

لكن لماذا؟ أتراها خائفة مني؟ أتظنني من قتلتهم؟... لكنها من استدعتني فلماذا تطردني الآن؟ أحقا تعتقد أني القاتلة؟ لكن... ألم أفْعَل؟ أقتلتهم؟... ألم أكن فاقدة الحواس؟

تختفي الأبواب من حولي... إن المكان يتهدم... تتلاشى الصناديق و تتحطم المنازل... تتداخل الألوان و تغدو أسودا قاتما... أركض باحثة عن مأمن... فتصرخ قائلة: " فقط غادري... يمكنك العودة متى شئت..."

لكن كيف أعود لمكان قد هُدم و هل ستزورني مجددا؟... أواصل الركض... هناك بعيدا أرى بابا أزرقا مميزا... أعتقد أنه المخرج... أدخله... إني في ذاك المستودع...

إنها هنا تنتظرني... تعانقني، تعطيني كتابا ثم تشير بإصبعها إلى المخرج... أودّعها و أغادر... لكن إلى أين سأعود... أين كانت البداية؟ أم أنها ستأخذني إلى بياض آخر؟...

الكتاب رحلة للبحث عن الذات لكن ليس ذاتي

و حسب بل ذات كل قارئ... جميعنا نتنقل بين أبواب كيان الإنسان نلمح التناقض و الاضطراب و الهدوء... نتجول بين ذات الكلمات بيد أنها تختلف فكل يهديها معاني تتشكل من أعماق تجربته و ملامح شخصيته... هكذا تعبر الكلمات عما في داخل القارئ لا الكاتبة...

شكرا